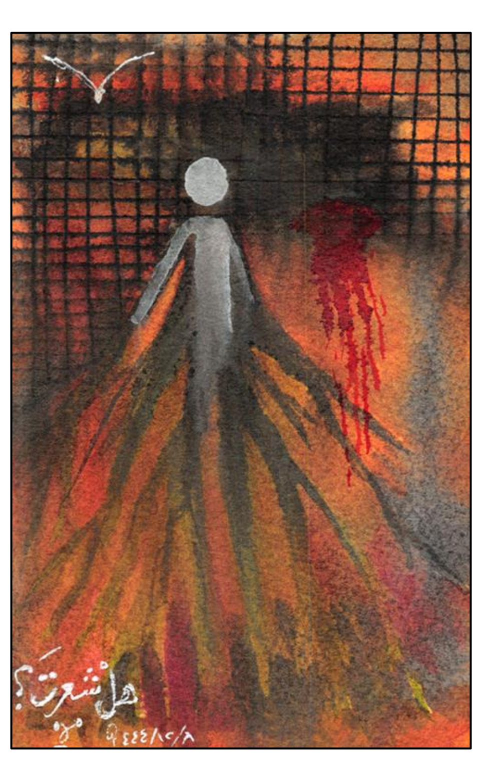
هل شعرتَ ؟!

ذو القعدة ١٤٤٤هـ (انتبه: هذا خيال وليس واقعا)



صغارا نركضُ، نضحكُ ، نجري
كبرنا
وصرتُ أعرف الفرق بينك وبيني
صار قلبي ينبضني
يتحرك
يهتز
أعادت ذاكرتي الضحكات والذكرى
ركبتُ أحلامي
وقلتُ لنفسي : هي شريكة حياتي
تزوجنا
وأبدتْ لي الأيام ما لم تكن تبدي

في لحظة بعد مضي السنين معها
أدركتُ بأن أحلامي لم تصدقني
وأيقنتُ : أنني لست منك وأنتِ لستِ مني
لا أنا ثوبك ولا أنتِ ثوبي
أنتِ في عالم الأوهام والأحلام والغضب والشك المستبدِ
وأنا واقعي جدا وعملي
بالقوة تقمحين نفسك في كل أمرٍ
حتى تسألين من راسلني ومن هاتفني وتفتحين هاتفي خلسة تقرأين رسائلهم ورسائلي

من هذه التي كتبتَ فيها قصيدة ؟ سألتني
قلت لها : أنا كاتب اكتب خيالي، بل هو الذي يكتبني

اتسعت عيناها، وبصوتٍ عالٍ منفعلا، قالت أنت تكذبني !
صدمتني : أأنا أكذب ؟! . كأنها بخنجر صدئٍ طعنتني
لا أعرفُ الغش والخداع وجهي واحد مع الكبير والصغير، ومع البائع والمشتري
لستُ بوجهين ولو كنت بمفردي.
كررتُ لها : هذا شعور الكاتب، يعيش في الخيال المختلقي
يذهبُ بعيدا بالصور والألفاظ بواقعهِ، ويرجعُ واقعه المختفي
لا أكتبُ ضحكا وطرائفي
صِرتُ أبكي بعدما حبسوا أبي وعمي وصاحبي وأخي
فما عدتُ في الكتابة أضحك حتى لو سألني الضحكَ قلبي.

قالت : بدأتَ تلعبُ بالألفاظ كعادتك، تقلبُ الباطل حقا لتسلب حقي !
حدثتني نفسي : قلتُ لك الحديثُ معها لا يجدي. هي لا تسمعُ ، تتفنن في اختلاق المشاكل ثم تجيء تحاسبني. كما قال اندريه جيد في روايته " مدرسة الزوجات " أنها لا تنتبه إلى الأخطاء الحقيقية التي يفعلها إنما تنشغل بالمشاكل التي يخترعها ذهنها.

هي لم تستوعبُ بأنَّ الكآبةَ ألمٌ. والألم الأشدُ الذي يراودني في صدري والذي عصف عقلي وقلبي وروحي: بأنني عرفتُ بأننا سنفترق ولن نلتقي. كنت أؤجل هذا عاما بعد عام ؛ راجيا عساها في لحظة صحوٍ من أحلام نومها ، تصحو.

حاولتُ، وضحتُ، شرحتُ، كتبتُ، صمتُّ، تكلمتُ.

خِلتُ النار تنطفي

لكنها بحطبها أحرقتني

قلت لها أرجوكِ : كفى هذا العذاب.

خارج البيت نار ، وأنتِ في البيتِ لستِ جنتي .

عاتبتها : لمْ تكوني كذلك ! ما الذي غيَّركِ ؟ لماذا تغيرتي ؟

قالت : رأيت في المنام أنك تسحرني !.

قلت: وما علاقتي بما حلمتي ؟! كيف بالأحلام قررتي ؟

قالت : رأيتُ بعد ذلك جيشا أقوده ، وسأهزمك وأنتصر عليك ، لن تستطيع أن تهزمني . وسأستردُ حقي.

قلت: لا شك أنك جنتي ! ، أية جيش وأية حرب !. أنا هنا أمامك أعلنُ انتصاركِ ، وسأوقعُ لك إقرارًا بهزيمتي؛ فلا حاجة للحرب والمعركةِ. الذي لم أعلمه قبل زواجنا، بأنها التحقتْ بلجنة حقوق المرأة إبَّانَ دَرَاسَتِها الجامعية في دولة أوروبية. وصارت مهووسة بهذه الحقوق فجعلت حياتها معركةً مع الرجل. لم يخبرني أحد بذلك حينما سألتُ عنها قبل زواجنا. لأن العيش مع إحداهن كالعيش في جو الصيف بلباس شتوي، وكعيش برد الشتاء بلا صوف أو دفء. كانت أنثى، لكنها تتصرفُ كالرجلِ.

ليس لي علاقة بمناشدة الغرب بحقوق امرأته. نساؤنا جواهر .

وهل تقول الجوهرة عن نفسها اعرفوا قدري وأعطوني حقي !. فكل القدر والحق لها. لكن هذا عيش من لبسَ عدسات غربية على العينِ. هل قرأتَ شيئا عن الحرب العالمية الثانية ؟. هكذا كانت حياتي من حربٍ إلى حرب. كانت القنابل دائما تسقط عليَّ.

كم كنت مسكينا !.

هل تعرف ذلك السمك في نهر الأمازون الذي يعض، الذي إذا لم تنجو منه صرت هيكلا عظميا. ينزف كل جسمك من عضه. وهكذا كانت مشاعري تنزف. كما تعلم، الصواريخ أنواع. ومن من أنواعها صواريخ أرض جو أي تنطلق من الأرض إلى الجو، وهكذا صواريخ جو جو. أما الصواريخ التي كانت تصلني فهي صواريخ وجها لوجه. فصارت حياتنا حربا في حرب. هي تريد أن تحتلني، وكنت أبحث عن هدوء نفسي وسكينتي. حتى ظننت بأنني سأرى نفسي في نشرة الأخبار اليومية كأخبار الفلسطيني من الصهيوني المحتل، وأخبار الأوكراني الذي عبث به الغرب. ربما صوروني في الأخبار وأنا أهرب من الباب الخلفي للمطبخ. هاربا من القصف وصواريخ الوجه.

بعد حينٍ، رحلتُ وتركتها بمفردها ، كان على المهزوم أن ينسحبي
فسحبتُ نفسي من عذابها وطلبتُ اللجوءَ الأسري
ركبتُ قطارًا لا أعلم وجهته ، أرجوك يا قطار من هنا خذني
تذكرتها في القطار

سألتني مرةً: لِمَ لا تنظر إليَّ وأنا أتكلم ؟
أجبتها: لا زالت اللقمة في فمِكِ
رفعتْ حاجبيها متضايقة ، وعرفتُ أنَّ داخلها حركها، وسيصير صوتها الناعم الأنثوي خشنا كصوت رجلٍ

عقَّبتْ بصوتها الخشنِ : لا شيء يعجبك فيني !
هذه مشكلتي معك : أرجوكِ لا تفسري الأمور بطريقتك ، قلت لكِ سواءً أنتِ أم أختي أم أخوك ياسر أو أية شخص، لا أنظر إليه متكلما وفي فيهِ لقمة. هذا منظر قبيح جدا في تصوري. ولهذا ترينني لا أتكلمُ حتى أبلعَ لقمتي.

قالت: أنت تفرض شخصيتك عليَّ !
وهذا أذهلني؛ أنا لم أفرض شخصيتي فلا زلتِ تتكلمين وفمك مليء بالأكل، ولم اعترض. فصرتُ اصرفُ عن فيكِ نظري

قالت: هذا قلة أدب أن أتكلم وأنت لا تنظرني.
صمتُ واعتذرت آسف وأرجو أن تقبلي عذري.

لا يهمني وافقتها أو وافقتني ، هذا في تصوري عذاب . أن أبرِّر كل تصرف في تصرفي ، وأن أضع الميزان الدقيق لكل قطعة من حروفي قبل كلمتي وجملتي.
لم تفهمني ، تزوجتها لأن تحيي حياتي ، فأماتت ما بقي مني ؛ فدفنتُ نفسي.

صرتُ أقضي مزيدا في عمل المكتب لا حبا في العمل الذي لا ينقصني إنما للهروب . كنتُ أهربُ منها، لكنها معي لا تنفصلُ عني. عذاب يلاحقني.

نعم انفصلنا بعد سنوات باختيارنا جميعا. اتفقنا أن ننفصل، ويظلُ احترامنا لبعضنا، وأحتفظ لها بكل جميل من الذكرى ، وأظنها تتذكرُ كل صغير وكبير من خطئي. انتهى ذلك الزمن الذي أرددُ فيه الكلام مع نفسي ، وأراجعه في صدري قبل أن أحدثها لئلا أفوهَ بما يجرمني؛ وخائفا أن تضع مصيدة الفئران على جملي.
كنتُ محبوسا في نفسي.
تسألني: أنت قلتَ هذا ، ماذا كان قصدك ؟.

أرسلتْ رسالة بجوالها : أتذكرُ قبل سبع سنوات ماذا قلت عني ؟
تساءلتُ مع نفسي مستنكرا: من سبع سنوات ؟!. أنا نسيتُ من بالأمس بسيارته على الطريق شتمني .
لا زالت تذكر ما قلتُ قبل سبع سنوات. سألتها في رسالة نصية ذكريني.

قالت: قلتَ لي أن لون الروج الجديد لا يناسب لوني !.
هذه كانت سبتي، تذكرتُ مآساتي ، كان يجب أن ننتهي.
فككتُ أزرار قميصي ،، أريد أن أتنفسَ، أريد أن أفتح ضيق صدري.
لا زالت بتعذيبها تلاحقني.

قلت لها مرة: الرجل كالطفل. وأخبرتها بقصة القاضي الذي جاءته امرأة إلى قاضٍ تشتكي زوجها قال لها لأحكمَ في قضيتك أحضري لي شعرةً من قرد. فعلا بعد أيام جاءت له بشعرة القرد، ابتسم القاضي في وجهها قائلا: استطعتي أن تجيئي بشعرة من قرد ، فكيف صَعُبَ عليك زوجكِ حينئذ !. هل كان عليَّ أن أكون قردا لتتعامل معي ؟!

كنْ منصفا، عليكَ أن تسمعَ منها كما سمعتَ مني . ستقولُ لك بأنه ظلمني.

أنا لم أطلبْ قضاءَك . حتى لا تظنني خدعتك فتتهمني.
عجبا كيف كان ذلك الإنسان الناعم الرقيق شوكا على دربي !
ليس في الحياة شيء كاملا ، وهل كَمُلتْ الحياةُ لأحدِ !.

هل شعرتَ ؟
جفَّ ماءُ عيني
وصار دمعي دمًا يجري
لا ادري : هل كان ذلك حزنا على نفسي، أم على صاحبي المظلوم في السجنِ ؟!

نظرتُ عبر نافذةَ القطار ، لأرى الحياةَ خلفها بسرعة تجري
رأيتُ انعكاسا على زجاجها
كانت نافذة القطار تدمعُ على دمعي
كان دمعها ماءً
من كثرتهِ ، جرى على خدي دمي.

سمعتُ صوتَ سلسلةٍ في آخر مقعد قاطرتي، التفتُ، فرأيتُ رجلا مُكبَلَ اليدين والقدمين بين شرطيين ، ركزتُ أكثر على وجهِ السجين ! تساءلتُ ! أهوَ أهوَ ؟!. الشيخ الذي درَّسَ في المسجدِ. نصفُ لحمه اختفى، وبرزت عظام وجهه. وانتشرَ الشيبُ في لحيته . كان اشتعال لحيته همًّا وغمًّا، ولم يكنْ لكبرٍ في عمرهِ ؟!.
كمْ قصةً يا شعرةً بيضاء بين بياضكِ !
لكن من ذا الذي يقرئكِ ؟!.
يا ألما على ألمي.

هل شعرتني ؟!
ربما رأيتَ دمعَ عيني.
لكنكَ لمْ ترى دمعَ نزفَ قلبي !.

____

انتہی